وإنك لعلى خلق عظيم

الخطبة الثالثة عشرة

بيعة العقبة

ما زلنا عباد الله على العهد باقين، ولسيرة المصطفى دارسين، وبدقائقها متعلمين، فَبَيْنَ نفحات العطر، وومضات الإشراق، وصلنا إلى الخطبة الخامسة والعشرين من سيرة عظيم الأخلاق سيدنا محمد ﷺ.

وما زال هو بأبي وأمي بعد ما حدث له في عام الحزن وبعد رحلة الإسراء والمعراج يعرض نفسه على القبائل كدلال يدعوهم إلى بضاعة الدين، فبعد عام الحزن أغلقت أبواب الدعوة بالكامل، وفي العام العاشر والحادي عشر لم يؤمن أحد تقريبا، وانتظر إلى آخر العام الحادي عشر ليتكلم مع وفود الحج وفد بعد وفود؛ فلم يؤمنوا، فأراد الله أن يمنح البشرية الخير فالتقى النبي ﷺ بستة رجال من الخزرج فدعاهم إلى الإسلام؛ فآمنوا جميعا، وذلك لإرادة الله التي لها سببان:

١. غلظة اليهود مع أقوام هؤلاء النفر؛ فاليهود كانوا يهددون الأوس والخزرج باقتراب قدوم النبي، وأن هذا هو زمانه، ويقولون: إنهم سوف يقتلونهم، فأصبح عند الأوس والخزرج خلفية عن قدوم النبي ﷺ فأرادوا أن يسبقوا اليهود إليه.

٢. حرب بعاث الطاحنة المشهورة التي كانت قبل لقائهم بالنبي ﷺ بشهور، وقتل فيها من قتل؛ فأرادوا أن ينتهي القتال بين الأوس والخزرج بوساطة من النبي ﷺ، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: **"كَانَ يَوْمُ بُعَاثَ يَوْمًا قَدَّمَهُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ"**[١].

فذهب هؤلاء النفر ودعوا قومهم للإسلام، فلما جاء العام المقبل جاء منهم اثنا عشر رجلا، فبايعوا الرسول ﷺ وكانت هذه هي البيعة الأولى من أهل المدينة الأنصار، فعن

[١] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٧٧٧).

عبادة بن الصامت: "**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ؛ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا؛ فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَسَتَرَهُ اللَّهُ؛ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ**"[1].

البيعة عباد الله بسيطة في كلماتها، عميقة في معانيها، تعتمد على العقيدة الصحيحة، ثم الأخلاق، ثم الطاعة في المعروف، وعلى هذه الدعائم تقوم الأمم.

ثم انصرفوا إلى بلادهم، وأرسل معهم الرسول ﷺ الصحابي الجليل مصعب بن عمير رضي الله عنه، وأمره أن يُقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، ومصعب بن عمير رضي الله عنه هذا الداعية الشاب كان من أترف شباب مكة، ولكنه سبق إلى الإسلام، وتعلم على يد رسول الله ﷺ، واختاره سفيرا له في المدينة؛ ليطيبها بالإسلام ويعلم أهلها القرآن، ويجهزها لهجرة النبي ﷺ، واستطاع مصعب بن عمير رضي الله عنه أن يدعو أهل المدينة حتى أسلموا جميعا تقريبا بما فيهم سيدا القوم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضي الله عنهما.

فهيا بنا مع مصعب بن عمير رضي الله عنه في رحلته مع أهل يثرب، لما خرج رضي الله عنه إلى يثرب كان معه: "**أَسْعَدَ بْنَ زُرَارَةَ يُرِيدُ بِهِ دَارَ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، وَدَارَ بَنِي ظَفَرٍ، وَكَانَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذِ بْنِ النُّعْمَانِ بْنِ امْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ الْأَشْهَلِ ابْنَ خَالَةِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، فَدَخَلَ بِهِ حَائِطًا مِنْ حَوَائِطِ بَنِي ظَفَرٍ، قَالَا: عَلَى بِئْرٍ يُقَالُ لَهَا بِئْرُ مَرَقٍ، فَجَلَسَا فِي الْحَائِطِ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِمَا رِجَالٌ مِمَّنْ أَسْلَمَ، وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ يَوْمَئِذٍ سَيِّدَا قَوْمِهِمَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، وَكِلَاهُمَا مُشْرِكٌ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، فَلَمَّا سَمِعَا**

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٨٩٢)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه بلفظ آخر (١٧٠٩).

بِهِ قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ لِأُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ: لَا أَبَا لَكَ، انْطَلِقْ إِلَى هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ قَدْ أَتَيَا دَارَيْنَا لِيُسَفِّهَا ضُعَفَاءَنَا، فَازْجُرْهُمَا وَانْهَهُمَا عَنْ أَنْ يَأْتِيَا دَارَيْنَا، فَإِنَّهُ لَوْلَا أَنَّ أَسْعَدَ بْنَ زُرَارَةَ مِنِّي حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُ كَفَيْتُكَ ذَلِكَ، هُوَ ابْنُ خَالَتِي، وَلَا أَجِدُ عَلَيْهِ مُقَدَّمًا، قَالَ: فَأَخَذَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ حَرْبَتَهُ ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِمَا، فَلَمَّا رَآهُ أَسْعَدُ ابْن زُرَارَةَ، قَالَ لِمُصْعَب بْنِ عُمَيْرٍ: هَذَا سَيِّدُ قَوْمِهِ قَدْ جَاءَكَ، فَاصْدُقْ اللَّهَ فِيهِ، قَالَ مُصْعَبٌ: إِنْ يَجْلِسْ أُكَلِّمْهُ، قَالَ: فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا مُتَشَتِّمًا، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكُمَا إِلَيْنَا تُسَفِّهَانِ ضُعَفَاءَنَا؟ اعْتَزِلَانَا إِنْ كَانَتْ لَكُمَا بِأَنْفُسِكُمَا حَاجَةٌ، فَقَالَ لَهُ مُصْعَبٌ: أَوَتَجْلِسُ فَتَسْمَعَ، فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا قَبِلْتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ كُفَّ عَنْكَ مَا تَكْرَهُ؟ قَالَ: أَنْصَفْتَ، ثُمَّ رَكَزَ حَرْبَتَهُ وَجَلَسَ إِلَيْهِمَا، فَكَلَّمَهُ مُصْعَبٌ بِالْإِسْلَامِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَقَالَا فِيمَا يُذْكَرُ عَنْهُمَا: وَاللَّهِ، لَعَرَفْنَا فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي إِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الْكَلَامَ وَأَجْمَلَهُ! كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا فِي هَذَا الدِّينِ؟ قَالَا لَهُ: تَغْتَسِلُ فَتَطَّهَّرُ وَتُطَهِّرُ ثَوْبَيْكَ، ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثُمَّ تُصَلِّي، فَقَامَ فَاغْتَسَلَ وَطَهَّرَ ثَوْبَيْهِ، وَتَشَهَّدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: إِنَّ وَرَائِي رَجُلًا إِنْ اتَّبَعَكُمَا؛ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ، وَسَأُرْسِلُهُ إِلَيْكُمَا الْآنَ، سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، ثُمَّ أَخَذَ حَرْبَتَهُ وَانْصَرَفَ إِلَى سَعْدٍ وَقَوْمِهِ وَهُمْ جُلُوسٌ فِي نَادِيهِمْ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مُقْبِلًا، قَالَ: أَحْلِفُ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أُسَيْدٌ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى النَّادِي قَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: كلّمت الرجلَيْن، فو الله مَا رَأَيْتُ بِهِمَا بَأْسًا، وَقَدْ نَهَيْتُهُمَا، فَقَالَا: نَفْعَلُ مَا أَحْبَبْتَ، وَقَدْ حُدِّثْتُ أَنَّ بَنِي حَارِثَةَ قَدْ خَرَجُوا إِلَى أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ لِيَقْتُلُوهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ ابْنُ خَالَتِكَ، لِيُخْفِرُوكَ[1]، قَالَ: فَقَامَ سَعْدٌ مُغْضَبًا مُبَادِرًا؛ تَخَوُّفًا لِلَّذِي ذُكِرَ لَهُ مِنْ بَنِي حَارِثَةَ، فَأَخَذَ

[1] لينقضوا عهدك.

الْحَرْبَةَ مِنْ يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَرَاكَ أَغْنَيْتَ شَيْئًا، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِمَا، فَلَمَّا رَآهُمَا سَعْدٌ مُطْمَئِنَّيْنِ، عَرَفَ سَعْدٌ أَنَّ أُسَيْدًا إِنَّمَا أَرَادَ مِنْهُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُمَا، فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا مُتَشَتِّمًا، ثُمَّ قَالَ لِأَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ: يَا أَبَا أُمَامَةَ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ الْقَرَابَةِ مَا رُمْتَ هَذَا مِنِّي، أَتَغْشَانَا فِي دَارَيْنَا بِمَا نَكْرَهُ –وَقَدْ قَالَ أَسْعَدُ بْن زُرَارَةَ لِمُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ: أَيْ مُصْعَبُ، جَاءَكَ وَاللَّهِ سَيِّدُ مَنْ وَرَاءَهُ مِنْ قَوْمِهِ، إِنْ يَتَّبِعْكَ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْكَ مِنْهُمْ اثْنَانِ– قَالَ: فَقَالَ لَهُ مُصْعَبٌ: أَوَتَقْعُدُ فَتَسْمَعَ، فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا وَرَغِبْتَ فِيهِ قَبِلْتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ عَزَلْنَا عَنْكَ مَا تَكْرَهُ؟ قَالَ سَعْدٌ: أَنْصَفْتَ، ثُمَّ رَكَزَ الْحَرْبَةَ وَجَلَسَ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، قَالَا: فَعَرَفْنَا وَاللَّهِ فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، لِإِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَنْتُمْ أَسْلَمْتُمْ وَدَخَلْتُمْ فِي هَذَا الدِّينِ؟ قَالَا: تَغْتَسِلُ فَتَطَّهَّرُ، وَتُطَهِّرُ ثَوْبَيْكَ، ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثُمَّ تُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، قَالَ: فَقَامَ فَاغْتَسَلَ وَطَهَّرَ ثَوْبَيْهِ، وَتَشَهَّدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثُمَّ رَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَخَذَ حَرْبَتَهُ، فَأَقْبَلَ عَامِدًا إِلَى نَادِي قَوْمِهِ وَمَعَهُ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، قَالَ: فَلَمَّا رَآهُ قَوْمُهُ مُقْبِلًا، قَالُوا: نَحْلِفُ بِاللَّه لَقَدْ رَجَعَ إِلَيْكُمْ سَعْدٌ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، كَيْفَ تَعْلَمُونَ أَمْرِي فِيكُمْ؟ قَالُوا: سَيِّدُنَا، وَأَوْصَلُنَا، وَأَفْضَلُنَا رَأْيًا، وَأَيْمَنُنَا نَقِيبَةً، قَالَ: فَإِنَّ كَلَامَ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّه وبرسوله، قَالَا: فوالله مَا أَمْسَى فِي دَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا مُسْلِمًا وَمُسْلِمَةً، وَرَجَعَ أَسْعَدُ وَمُصْعَبٌ إِلَى مَنْزِلِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، فَأَقَامَ عِنْدَهُ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ، حَتَّى لَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ مُسْلِمُونَ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ دَارِ بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، وَخَطْمَةَ وَوَائِلٍ وَوَاقِفٍ"[1].

---

[1] أخرجه ابن سيد الناس في عيون الأثر (٨٦/١)، وبلفظ مقارب أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤٣٨/٢)، وذكر في كتاب الموسوعة في صحيح السيرة النبوية (٤٨٥/١)، لأبي إبراهيم محمد بن إلياس الفالوذه حفظه الله.

وهكذا عباد الله نجح مصعب أيما نجاح في نشر الإسلام، وجمع الناس عليه، واستطاع أن ينقل الناس من موروثات ألفوها إلى الإيمان بالله ﷻ.

ولا تحسبن مصعبا رضي الله عنه كأولئك المرتزقة الذين دسهم الاستعمار الغربي بين يدي زحفه على الشرق، يقبع تحت سرير المريض ليعطيه المال والطعام؛ ليدخل في دينه، وربما فتح مدرسة ظاهرها الثقافة المجردة أو ملجأ ظاهره البر الخالص، ثم لوى زمام الناشئة من حيث لا يدرون، ومال بهم حيث يريد؛ هذا ضرب من التلصص الروحي يتوارى تحت اسم الدعوة إلى الدين، أما مصعب رضي الله عنه فكان من ورائه نبي مضطهد، ورسالة معتبرة ضد القانون، ورجال حفاة عراة، كان لا يملك من وسائل الإغراء وما يطمع طلاب الدنيا ونهازي الفرص، كل ما لديه لا اله إلا الله بإخلاص وفطنة.

هذا هو مصعب بن عمير رضي الله عنه، هذا هو أحد صحابة النبي ﷺ الذين يخوض فيهم الكافرون، والمنافقون، والعلمانيون، والسفهاء، وهؤلاء الذين باعوا ذممهم بحفنة دولارات.

هذا هو مصعب بن عمير رضي الله عنه، ذاك الذي كان أنعم غلام بمكة، وأجود شبابها حلة وبهاء، فلما دخل الإسلام طوى كل تلك الرفاهية وذلك النعيم، وانطلق في سبيل الدعوة الإسلامية يتجرع كل شدة، ويستعذب العذاب، حتى قضى نحبه شهيدًا في غزوة أحد، وليس عنده ما يستره كاملا ليدفن، فعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: **"فَلَمْ نَجِدْ مَا نُكَفِّنُهُ إِلَّا بُرْدَةً إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ خَرَجَتْ رِجْلَاهُ وَإِذَا غَطَّيْنَا رِجْلَيْهِ خَرَجَ رَأْسُهُ، فَأَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نُغَطِّيَ رَأْسَهُ، وَأَنْ نَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ مِنَ الْإِذْخِرِ"**[1].

ثم رجع مصعب بن عمير رضي الله عنه في العام التالي ومعه جمع كبير من مسلمي المدينة، خرجوا مستخفين مع حجاج قومهم المشركين، وواعدوا رسول الله ﷺ.

عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال عن بيعة العقبة الثانية: **"فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي**

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١٢٧٦)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٩٤٠).

رِحَالِنَا، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقَطَا[1]، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلًا، وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِهِمْ، نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ أُمُّ عُمَارَةَ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَلِمَةَ وَهِيَ أُمُّ مَنِيعٍ، قَالَ: فَاجْتَمَعْنَا بِالشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى جَاءَنَا وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، إِلَّا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ، وَيَتَوَثَّقُ لَهُ، فَلَمَّا جَلَسْنَا كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، –قَالَ: وَكَانَتْ الْعَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ الْخَزْرَجَ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا– إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ، وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ، قَالَ: فَقُلْنَا: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ، قَالَ: فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَلَا، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ ﷻ وَرَغَّبَ فِي الْإِسْلَامِ، قَالَ: أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، قَالَ: فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ، وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، قَالَ: فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ وَالْبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالًا، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا يَعْنِي الْعُهُودَ، فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ، أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ، وَتَدَعَنَا؟ قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: بَلْ الدَّمَ الدَّمَ، وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا يَكُونُونَ

[1] قال ابن منظور رحمه الله في لسان العرب (١٥/١٨٩): "قَطا يَقْطُو: ثَقُل مَشْيُهُ، والقَطَا: طَائِرٌ مَعْرُوفٌ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِثِقَل مَشْيِه".

عَلَى قَوْمِهِمْ، فَأَخْرَجُوا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا، مِنْهُمْ تِسْعَةٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوْسِ."[1].

قال كعب: "كَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ عَلَى يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ، ثُمَّ تَتَابَعَ الْقَوْمُ، فَلَمَّا بَايَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَرَخَ الشَّيْطَانُ مِنْ رَأْسِ الْعَقَبَةِ بِأَبْعَدِ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ قَطُّ: يَا أَهْلَ الْجَبَاجِبِ، وَالْجُبَاجِبُ: الْمَنَازِلُ، هَلْ لَكُمْ فِي مُذَمَّمٍ وَالصُّبَاةُ مَعَهُ؟ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ، قَالَ عَلِيٌّ -يَعْنِي ابْنَ إِسْحَاقَ-: مَا يَقُولُهُ عَدُوُّ اللَّهِ مُحَمَّدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "هَذَا أَزَبُّ[2] الْعَقَبَةِ، هَذَا ابْنُ أَزْيَبَ، اسْمَعْ أَيْ عَدُوَّ اللَّهِ، أَمَا وَاللَّهِ لَأَفْرُغَنَّ لَكَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ارْفَعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَمْ أُؤْمَرْ بِذَلِكَ، قَالَ: فَرَجَعْنَا فَنِمْنَا حَتَّى أَصْبَحْنَا، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا غَدَتْ عَلَيْنَا جُلَّةُ قُرَيْشٍ حَتَّى جَاءُونَا فِي مَنَازِلِنَا، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى صَاحِبِنَا هَذَا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، وَتُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِنَا! وَاللَّهِ، إِنَّهُ مَا مِنَ الْعَرَبِ أَحَدٌ أَبْغَضَ إِلَيْنَا أَنْ تَنْشَبَ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مِنْكُمْ، قَالَ: فَانْبَعَثَ مَنْ هُنَالِكَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِنَا يَحْلِفُونَ لَهُمْ بِاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ وَمَا عَلِمْنَاهُ، وَقَدْ صَدَقُوا لَمْ يَعْلَمُوا مَا كَانَ مِنَّا"[3].

وتمت البيعة، ورحل الأنصار إلى المدينة ينتظرون المسلمين المهاجرين، ورحل أهل مكة ينظرون في أمرهم، ورحل سيدنا محمد ﷺ ومن معه.

ولكن نبقى نحن عباد الله؛ لنتدارس ما قلنا، ونستنشق من هذا الروض البديع، فما أجمل

---

[1] أخرجه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده (١٥٧٩٨)، وبلفظ مقارب صححه الألباني رحمه الله في فقه السيرة للغزالي رحمه الله (١٤٩).

[2] قال ابن منظور رحمه الله في لسان العرب (٢١٣/١): "وَفِي حَدِيثِ بَيْعةِ العَقَبة: هُوَ شَيْطَانٌ اسْمُهُ أَزَبُّ العَقَبةِ ، وَهُوَ الحَيَّةُ".

[3] أخرجه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده (١٥٧٩٨)، وقال الهيثمي رحمه الله في مجمع الزوائد (٦/٤٥): رجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع.

وما أبدع وما أعظم ما حدث!

أولًا: حقيقة الإسلام

لقد رأينا أن إسلام هؤلاء لم يكن مجرد نطق بالشهادتين، بل كان إسلامهم هو الجزم القلبي والنطق اللساني بهما، ثم وجدنا التزاما بالبيعة التي أخذها رسول الله ﷺ عليهم، وجدنا انصباغ سلوكهم بالصبغة الإسلامية؛ عن طريق التمسك بنظمه، وأخلاقه، وعامة مبادئه، فليست مهمته ﷺ أن يلقنهم كلمة الشهادة ثم يتركهم يرددونها، فليس الإسلام دينا منقسمًا على نفسه، بل لا بد أن يكون مسلما تحت الشريعة كما أنه تحت السماء، فكل مجال من مجالات الحياة، وكل قول، وكل فعل، وكل عزم؛ له قوانين إلهية تحكمه في ظل هذه الشريعة، فلو أن الإسلام كلمة تقال، أو طقوس تفعل في عيد أو جنازة؛ لتنبه إلى ذلك الذين أرسل الله إليهم الرسل، ولدخلوا في مثل هذا الدين الذي لا يكلفهم بشيء، لكنهم عرفوا أنهم مكلفون، وعليهم أن يكونوا عبيدا لله، ولا ينتظرون بذلك مغانما، فهاهم الأنصار بايعوا الرسول ﷺ، وسوف يقتلون، وسوف يجاهدون، وسوف يعبدون الله، ولم يعدهم النبي ﷺ بمغنم، وأين موضع المغانم في هذه البيعة؟ لقد قام الأمر كله على التجرد المحض، لم يعدهم ﷺ برزق عاجل ولا آجل، حتى الجنة تكون بحسب أعمالهم طوال حياتهم.

ثانيًا: مرونة الدعوة

لما توقف دخول الناس في دين الله عامين تقريبا؛ غَيَّرَ ﷺ في أسلوب دعوته بعض الشيء، فبعد أن كانت جهرية بين قريش، فيدعو في الحج القبائل، جعلها سرية، فكان في حج العام الحادي عشر من البعثة يذهب إلى المخيمات خارج مكة؛ وذلك حتى لا تعرف قريش فتشوش عليه.

كان يأخذ معه الصديق رضي الله عنه؛ لأنه على علم بالأنساب والقبائل، فينبئه بأحوال القبائل؛ فهذه يدعوها إلى الإسلام، والأخرى يدعوها إلى النصرة والمنعة، فالدعوة مرنة، ولكن في

حدود الشرع وتحت مظلته، فمرونة الدعوة تكمن في شرعيتها، أما من يُسَيِّر مرونة الدعوة على هواه لتخرج خارج نطاق الشرع؛ فهذا لم يفهم الشرع، أو لم يفهم الدعوة. فالاختلاط بين الرجال والنساء باسم الدعوة خطأ، وترك الواجبات باسم الدعوة خطأ، والتجاوز وتمييع الدين باسم الدعوة خطأ .

ولكن المرونة في تغيير الأساليب والطرق بحيث يرضى عنها الله ﷻ

ثالثًا: الفتح قريب ولكن ندفع الثمن:

لا تحسبن الفتح، وانتشار الإسلام، وهلاك الكافرين، والمنافقين، وعديمي الذمم، يُحسَب بالورق أو بالعقل المحض الخالي من الإيمان، لا وألف لا.

فإذا نظرت إلى العام العاشر والحادي عشر من الهجرة والاضطهاد الذي كان فيه رسول الله ﷺ، ولم يدخل أحد في دين الله؛ لقلت بالقلم، والأوراق، والحسابات: إن أمة الإسلام مستحيل أن تقوم إلا بعد قرون، غير أنه بعد عامين فقط أصبحت لأمة الإسلام دولة.

كان فِعل الرسول ﷺ في هذا المدة محصورا في التوكل على الله؛ وذلك بتعلق القلب بالله ﷻ، وفي نفس الوقت بالاجتهاد في الدعوة، والأخذ بالأسباب؛ وكان الشعار هو ليس مهما كم رجل دخل في الإسلام؛ ولكن المهم كم رجل دعاه وحاول معه.

فإذا رضي الله عن فعلك هيأ الأسباب، وإن جعلها في أعدائه؛ فها هي الثلة المباركة، دفعهم للإسلام اليهود، بأنهم عرفوهم أنه يوجد نبي سوف يظهر، وخوفوهم بالقتل؛ فكان ذلك دافعا للدخول في الإسلام ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** ﴾[الأنفال: ٣٦].

فلا تقل: إن المسلمين ما عندهم أسلحة ولا عندهم قوة، والأعداء عندهم وعندهم، ثم إنهم يقفون حائلا بيننا وبين التقدم، ثم إن من العملاء من يساعدونهم على ذلك؛ إذن

فليس قبل قرون حتى تكون لأمة الإسلام صولتها، فلا تقل هذا، بل قل: هل نحن كمسلمين كدعاة إلى الخير نطيع الله، ونحاول على قدر جهدنا أن نتقي الله؟ فإن كان كذلك سوف يهيئ الله لنا الأسباب، وإلا فالقرون بيننا وبين ذلك.

إذن فالثمن هو الجهد، والصبر، والثبات، واتباع الهدي النبوي.

فها هو قدوتنا ﷺ يعاني إحدى عشر سنة -بأبي هو وأمي- من حياة لا راحة فيها ولا استقرار، فلا ينقص ذلك من عزيمته، ولا يضعف شيئا من قوته وسعيه.

إحدى عشر سنة والرسول ﷺ يعاني من غربة هائلة مظلمة بين قوم، فلا ييأس ولا يضجر.

إحدى عشر سنة من الجهاد والصبر المتواصل، هذا هو الثمن والطريق إلى نشأة مد إسلامي زاخر عظيم، ينتشر في مشارق العالم ومغاربه، تتساقط أمامه قوى الروم، وتتهاوى بين يديه عظمة فارس، وتذوب حوله قيم النظم والحضارات، الثمن عباد الله هذا الجهد الذي نتعلمه من قدوتنا، الذي تعلمه من ربه، الثمن هو التعبد الاختياري له سبحانه، فقد كان من الممكن أن يقيم الله تعالى دعائم المجتمع الإسلامي بدون هذا العناء، ولكن تلك هي سنة الله في عباده، أراد أن يتحقق فيهم التعبد له اختيارا كما تحققت فيهم صفة العبودية له إجبارًا، فلنتعلم ذلك جيدًا حين ندعو إلى الله منتظرين الفتح.

اعلم أن اصطفاء الله لك لهذه الرسالة العظيمة ليس بالأمل فيها، ولكن بالطاقة عليها، وكم في الحياة من طامحين لا يملكون إلا الجرأة على الأمل! وكم من راسخين يطويهم الصمت حتى إذا كلفوا أتوا بالعجائب!

رابعًا: فضل الصحابة

هذا أمر لا نستطيع أن نحصيه في خطب وخطب، فالله سبحانه وتعالى اختارهم ليحملوا هذا الأمر العظيم، جبلهم الله سبحانه وتعالى على الصدق، والشهامة، والمروءة، وهيأ

قلوبهم لقبول الدين، رباهم النبيﷺ وصبر عليهم حتى أينع الصبر، وبدأ الجهد يثمر، واستغلظ زرع الدعوة، وأخذ يستوي على سوقه؛ ليعطر ثماره بهؤلاء الصحابة، وقف رسول اللهﷺ أمام البشرية لتبدأ عهد العدل والعبودية لرب السماوات والأرض.